قصة قصيرة

أسماك نهرية ...

فيصل ع. حاجم

عند الجسر حيث يتفرع الطريق الى عدة ممرات تغور بعيدا في عمق بساتين النخيل توقف وفكر أنه سيسير بموازاة حائط الطوب ورأى الى الاغصان المتدلية والنجيمات الحمر التي تتوج الحائط ، والاذرع التي بلون التراب والعائدة لاشجار البمبر ، والتي تخيلها ـ عندما مر من تحتها ـ انها تمتد لتمسك به ، وأبعد رأسه كأنما يريد ان يزيد من المسافة بينها وبين رأسه الحليق، وبطرف عينه كان يرى الى مراوح النخيل المهتزة فوق مياه الساقية المطحلبة ، ودروع السلاحف المتشمسة ، والنباتات التي نمت فوق الربوة ، ومسالك السواقي التي تغيبها صفوف أشجار النخيل ، وقطع الارض المزروعة المرصعة بالورود المدونة ، أحس بقدميه خفيفتين تحلقان فوق الارض ، وبالتراب الدقيق الذي تثيره قدماه كلما مسّتا الارض ، ومن أمامه مرت كلبة يتبعها كلب يمتلك بقعة سوداء فوق رقبته ورآهما من فجوة في جدار الطوب ، ويمضيان بعيدا صوب كتلة من سعف النخيل قطع قبل فترة طويلة ، جدار الطوب ليس أعلى من قامته ، وكان رأسه يطفو فوق الكتلة الترابية ، وعيناه ترقبان مساحات الارض المسيجة . وأدخنة البيوت القصبية . كان يرهف أذنيه ليسمع أوطأ الاصوات : يسمع مزيجا من طرطشة مياه السواقي والطيور والضفادع وهسيس سعفات النخيل ، واحتكاك أوراق أشجار البمبر ، أو سقوط الاثمار الناضجة ، أو نباح كلاب بعيدة أو حركات عنيفة لجرذ تحت أكوام الحطب ، تساءل وهو يشعر بجسده يطفو فوق كل الاصوات : أحقا انها تعيش هنا كعروس صغيرة لا يزال حناء العرس يخضب كفيها وقدميها ؟

من فوق رأسه مر سرب من طيور وجلة اختفت بعيدا خلف هامات النخيل أو اندست بين العذوق وتشابك السعفات ، أو ذهبت محلقة بموازاة ماء السواقي . تحسس شيئا تحت ثيابه ونظر ناحية نهاية الدرب الذي تظلله أشجار الرمان ، وتغيبه انحناءات الطريق ، سرت في بدنه رجفة أحسها تشمل كل ما موجود ورأى للاشياء وجوها حزينة متطاولة تتذكر أشياء سعيدة حدثت فيما مضى : أطفال يسبحون وفتى ضئيل الجسم يمسك شعر فتاة بوله يسحبها اليه فتغوص في الماء ، وتتحول الضحكات الى طرطشة مكتومة .

تعلم منذ الطفولة كيف يعجن الطين ليجعل منه وجوها ادمية تمتلىء بالحزن أو الفرح ، يعجنها لتكون وجوها قروية يقابلها كل يوم وهي تعرق فوق الارض أو تتزاوج أو تمرض وتذوى ، في كل بيت من بيوت القرية صنع تمثالا ، شيئا رائعا من الصلصال ، بث فيه كل أفراحه وأحزانه ، والجميع يحسدون هذه القدرة لديه ، ولكنهم كانوا يفخرون به ويدفعون له النقود لكي يزين لهم بيوتهم ، أو لينحت لهم وجوههم ، أو وجوه موتاهم من صور قديمة ، وجه واحد بقي يصنعه لفترة طويلة : اختار له أفضل طين وجده ، وكان يسأله أخوه : ـ

ـ لم كل هذا التعب ، انها لا تميل اليك ؟

كان يغضب ووجهه متفصد بالعرق : ـ

ـ لا يهم . انها ابنة عمي وأريد أن أهديها هذا التمثال ...

وفي داخله أشياء رهيبة تعتمل ، ورغبات تمور لاهبة ، تتوهج بأصابعه التي تشكل كتلة الطين ، وتحفر التجاويف ، وتسوي خصلات الشعر فوق الجبهة ، والغمازتان في الوجه ، وأشياء أخرى لم يكن أحد يراها في وجه ابنة عمه سواه ، لا أحد غيره قد انتبه لزيادة ضئيلة من اللحم تحت ابطها الايسر أو للالتواء البسيط الذي يحدث في شفتها السفلى حينما تكون غاضبة أو لبروز العضلة التي في الوجه تحت العينين حينما تتكلم بجدية مع شخص يكبرها .

أخرج قبضة ريح محصورة في صدره وملأت أنفه رائحة النباتات وغبار الطلع ورائحة الطحالب والعشب اليابس ، وبدأ يهبط من فوق المرتفع الترابي صوب ثلمة في سياج الطوب باتجاه طريق ترابي محدد بصفين من أشجار النخيل وساقية الى اليسار ، سار تظلله مراوح

النخيل وانتابته رغبة قوية بأن يغمض عينيه ، أخذ يحلق فوق الارض الترابية ويمد أصابعه ، فتمسك بالدخان الصاعد من البيوت الطينية المنتشرة بين الممرات المائية والمساحات المزروعة ، وتسوي هذه الاصابع كتل الدخان وتصنع منه وجها كبيرا لفتاة بيضاء بأنف قصير وجبهة عالية وبالتواء بسيط في الشفة السفلى ، تضحك فيزول الالتواء ، وتتطاير خصلاتها بعيدا فتظلل الدروب والمساحات الواسعة ، يسترسل شعرها بعيدا وينتشر ويذوب في السماء المفتوحة ، انتبه الى جذع النخلة الذي مد بين طرفي الساقية ، وعندما كان يسير فوقه لاحظ مياه الساقية الغرينية وتخيل الالوان حوله فاقعة بلون الدم .

توقف أمام باب الصفيح ونقره نقرتين ، وسمع صوتا من جوف الدار : ـ

ـ من ؟ صالح ؟

فكر ان صالح هو اسم زوجها . فتحت باب الصفيح فامتلأت الفتحة العليا بوجهها الملفوف بفوطة لم تلفها جيدا ، صاحت بصوت خفيض كأنما فوجئت : ـ

ـ ابن عمي ؟

انفتح باب الصفيح تماما ، وطبعت فوق خده قبلة سريعة ، كانت كلها في الضوء بثوب أبيض رائع ، وضع يده فوق رأسها وقبل يده ، صاحت به :

ـ تفضل ...

دخل مرتبكا ، وملأت خياشيمه رائحة عطرها ، ممزوجة برائحة دهان الخشب الحديث ، وتحسس بيده الفراغ ، كانا في الحوش فسبقته الى غرفة طينية وفتحت له الباب :

ـ أدخل ، زوجي في المزرعة ، وعمي وعمتي ذهبا الى المدينة ليتسوقا . دخل الغرفة وعندما اعتادت عيناه الظلام استطاع أن يرى قطع الاثاث الجديدة ، و « دشداشة » بيضاء معلقة فوق الحائط بمسمار ، وقال في نفسه وهو يجلس : « انه ثوب زوجها : أتلوث أطرافه قطرات الدم ؟» شعر بنار رهيبة تستعر في داخله وتكويه، وود لو يبكي ، لو يصرخ مثل طفل ، ولكنه تنهد تنهيدة مسموعة ، وسمعها تقول :

ـ سأحضر لك كوب لبن .

بقي لوحده في الغرفة وسمعها من الحوش تقول :ـ

ـ كيف حال أهلي ؟

رد عليها بصوت عال لتسمعه ، وهو يتحسس ثيابه ويرتب وضع جلسته :

ـ بخير .

عندما دخلت الغرفة كان بيدها اناء لبن كبير ، أخذه منها : ـ

ـ لقد تسرحت من الجيش .

اقتربت منه وجست يده وهو يشرب اللبن : ـ

ـ أنت مريض ، ساخن مثل التنور .

وضع اناء اللبن ، وابتسم :

ـ انني بخير ..

تحسست وجهه مرة ثانية ، وامتلات خياشيمه برائحتها : ـ

ـ انك ساخن ، سنأخذك أنا وصالح الى الطبيب .

شرب ما تبقى في الاناء :

ـ انني بخير صدقيني ، انها ضربة شمس ليس الا !

تحركت في الغرفة كانما نسيت شيئا مهما :

ـ هل أعمل لك الشاي ؟

تنهد ونظر صوب السقف وملأت عينيه التماعات الضوء فوق مسرى أعمدة الخشب التي تسند السقف ، وعندما التقت عيناه بعينيها : ـ

ـ لا . كيف حالك ؟ هل أنت سعيدة ؟

ـ أجل ، وأنت ؟

كبت زفرة طويلة كادت تخرج من صدره ، وتابع مسرى الخشب المتعرج والنتوءات الصغيرة في الاعمدة :

ـ لقد تسرحت من الجيش وسأساعد أبي في الارض ...

ضحكت ، وسألته :

ـ ألم تكمل تمثالي ؟

شعر بالسرور ، وأخذت أحزانه تتبخر :

ـ لقد أكملته ، ولونته ...

لملمت ثوبها وجلست قبالته متكئة الى جدار الطوب مركزة وزنها فوق قدميها : ـ

ـ انني أريده ، انه لي ، انت لم تعطني هدية عرسي .

أحس بالارتباك ، وشيء يقبض على قلبه ، ولكنه قال بمرح وبصوت متوتر :

ـ أريده أن يبقى لي . أما هدية العرس فقد جلبتها معي لك ولزوجك ، وسأعطيها لكما معا ...

في فيء شجرة البمبر فرشت له « بساطا » من أوراق البردى مزينا بالمنائر والقبب والادعية ، وتمتد ظلال شجرة البمبر فوق مياه الساقية ، ثنى المخدة ووضعها في حضنه وأخذ يحدق الى المياه التي تنساب بسرعة في الساقية لتسقي الاراضي المزروعة ، وعندما يبحث عنها بعينيه يراها بين نباتات الجت ، أو تقلم الاشجار ، أو تعيد حفر مجاري الماء الضيقة بين مساحات الارض المزروعة ، أو تنثر الحبوب للدجاجات المتجولة في الساحة أمام الدار ، شعر بالخدر يشمله وبعينيه تثقلان . وضع مخدة الريش جانبا واستند بظهره الى شجرة البمبر وفي

فتحتي عينيه الضيقتين كانت ترتسم البطات سابحة ، والعصافير الدورية تبني أعشاشها أو ترتوي من مياه الساقية ، وثوب ابنة عمه المزركش . فتح عينيه عندما رآها مقبلة نحوه كانت تحمل في يدها صحنا ورغيف خبز :

ـ أنمت ؟

عدل من وضع جلسته :

ـ أجل قليلا ...

وضعت أمامه الصحن ورغيف الخبز :

ـ لقد قليت لك بيضتين ...

عندما رأى الاكل أمامه ، تذكر أنه لم يأكل شيئا منذ الصباح ،

ابتسم لها :

ـ شكرا ، لست جائعا .

ـ لقد قليتها لك ، انهما بيضتا دجاجتنا الكبيرة ، لا أتذكر من أهداها لنا صباح اليوم الاول !

شعر بالخناجر تمزق أحشاءه ، وبألم رهيب يعتصره ، ونظر صوب مياه الساقية الفرينية ، ولمح بطون الاسماك الصغيرة الفضية تلتمع في الضوء ، أو ظهورها الملحاء ، وقطرات الماء المتجمعة حول أجنحة البطات المضمومة ، ورأى الاشياء تتحرك بسرعة وأوراق الاشجار تصفق بأصوات مدوية ، وبورود شجرة الرمان تسقط فوق الممرات الترابية ذابلة ، واشعة الشمس التي تتخلل الاغصان تتحلل الى ألوان ملونة تغلب عليها الزرقة ، والارض رمادية هشة ، والسماء معلقة في نقطة مجهولة من الكون تهزها حركة الريح الوئيدة ، فتنقلب الاشجار ومنائر « البساط » والبيوت الى جوانبها وتسيح مياه الانهار والممرات وتلبط الاسماك النهرية في قعر الساقية لبطاتها الاخيرة متشنجة ، يرى التماعات الضوء فوق بطونها الفضية : أسماك نهرية جاءت تبحث عن الدفء وعن الظلال في ممرات بعيدة تتخلل البساتين الجنوبية ، المضمخة برائحة الطلع والورود المتفتحة ، والخبز المحمص حديثا ، والحناء الحديث الطلاء ، وروائح الاسماك النهرية المشوية في قعر التنانير المتوهجة بالنار والدخان . »

أغمض عينيه وهمس : ـ أسماك نهرية متعبة وحزينة .

ـ هل نمت ؟

لم يجبها بشيء ، وسمع أقدامها تمضي ، ثم سمع حركة الاقدام تتوقف وتخاطب شخصا بعيدا ربما كان لم يعبر الساقية بعد :

ـ ابن عمي عندنا ، لقد انتظرناك طويلا :

وسمع صوتا أجش بعيدا يقول :

ـ أهلا به .

الشمس تهبط رويدا رويدا خلف الافق وتحيل ألوان الاشياء ، وفوق الارض الترابية المحصورة بين ساقيتين تدرج عربة فوقها امرأة ورجلان يزيدان من سرعة العربة ويقهقهان بأصوات عالية ومن بين الثيل النابت فوق الارض تستيقظ حيوات غافية وتنسل صوب السواقي ، وفوق نباتات الجت التي حصدوها تتكوم مع زوجها يعبثان بورود الجت ويرميانها على ظهر ابن عمها المشغول بقيادة العربة بسرعة فائقة ، والحصان الوحيد يزيد من سرعته باستمرار ، ويقهقهون ، وفي لحظات الهدوء يحدثها عن تماثيله ، وعن امرأة كان يحبها ، وعن أصدقائه في الجيش ، والارض ، وحصانه الذي لا يستطيع ركوبه ، وعن المساء حينما يهبط على الاراضي الشاسعة وقع ذلك على رجل وحيد غريب يصنع التماثيل من الطين ، ويبسها تحت الشمس ، ويصطاد الاسماك في الليل بفالة صنعها بنفسه ، كان يقول لهما انه يصطاد أسماكا كبيرة في الليل ، فالظلام له سحره الخاص ، كانت العربة المسرعة تنعكس فوق صفحة الماء بين ركامات الطحالب والنباتات النامية ، وعند انحراف الطريق أوقف العربة ، ونزل من خلف الحصان ، فبقي الحصان ينكت برأسه ، فوجئت وزوجها بتوقف العربة ، ورأت ابن عمها يخرج من تحت ثيابه خنجرا ملفوفا بقرابه ، ورأته يقدم لهما الخنجر :

ـ لقد جلبت لكما هدية عرسكما .

أخذه صالح وقلبه بين يديه ووضعه فوق كومة الجت :

ـ شكرا .

وركب من جديد ، وأخذ يضرب الحصان : أسرع ، طر بسرعة . » أخذت العربة تسرع ، كان صالح يداعب زوجته ويضحكان ولم ينتبها للخنجر الذي سقط من فوق كومة الجت وتدهور في الساقية ، العربة تسرع صوب البيوت الطينية القريبة ، وكان السائق متصلب الوجه ، ثم بللت دمعتان وجهه ودون أن يلاحظه أخذ يقهقه معهما ، ويمسح دموعه ، وذهبت العربة تدرج بسرعة في الطريق الترابي الملتوي .

فلورنسا ـ ايطاليا